

حديث في القرن التاسع عشر

للأستاذ خليل هنداوي



الأيام المدودة ، حجة متينة وثيقة ، تجاذبنا فيها ما اختلفت ألوانه من الأحاديث . وقيل أن يقادرنى إلى بلده قال لى :

— والآن أريد أن أسالك عن مسألتين ، ولكنى رجل لا أحب النقاش المل ، والجدل القائم على المكابرة .

قال :

— إننى أطلب إلى الله أن يمتنى على دين عمر بن الخطاب ا

قلت له :

— يا هذا ! إن الدين دين محمد ، فكيف تسنده إلى عمر ؟

أجاب :

— نعم . إن الدين دين محمد ، ولكنى أدعو الله أن يمتنى

على دين عمر . . . إن محمداً جاء بالدين ودعا إليه ، وأبو بكر شد أزره ، وثبت أمره . وجاء عمر بنشره ويؤيده وينفذه . . . ومات عمر والسلمون من بعده لا يزالون يتخبطون فى فتنه عمياء ، عرفت أوائلها ، ولا تعرف خواتمها ! المسلمون اليوم على دين غير دين عمر . وماذا - لعمر الله - يعرون من هذا الدين إلا رسومه ؟ دين عمر يأمر بالصلاح وهم فاسدون . دين عمر يأمر بالأمانة وهم خائنون ، ويأمر بالصدق وهم كاذبون ، ويأمر بالوفاء وهم غادرون . . .

سمعتُ هذا من محدثي ، وبرقت لى نفسى خاطرة أحببت أن أوضحها ، وأحببت أن ألفت إليها أنظار المصلحين من رجال الدين : إن الأخلاق التى حث عليها الدين تنحصر فى نوعين : الأخلاق الحسية ، والأخلاق المعنوية . أما الأولى فعلى تناول الظاهر وتجمل من الرجل الذى يتمسك بها رجلاً فاضلاً محترماً . وإلى هذا النوع من الأخلاق يميل المصلحون ، وعلى ممارسته يمتنون . على أن السلمين فى الحقيقة لم يتردوا فى هذا الدرك الأسفل من الدل ، لأن بهمهم يشرب الخمر أو يفسق أو يقامر ، وإنما لى أكثر الأمم المملطة دليلاً غارقة فى غمرها وفسقها وقارها . . فلم يضرها ذلك شيئاً . أما الجانب الأكثر خطراً فى الأخلاق ، فهو الجانب المعنوى الذى تقاس به حيوية الأمم . ولعل هذا الجانب هو ما قصد إليه المستشرق ، لأنه وجد أخلاقاً المعنوية ، ومقاييسنا الروحية هزيلة جداً : ففاجرنا مثلاً يشرى بالحياة والحيلة ، وقيمتنا يرنع بالكذب ، ومصلحتنا يقصد جيبه قبل أن يقصد ربه . ومثل هذا الجانب هو ما يبنى للمصلحين أن يبالغوه ! وقد عرف رجال الدين كيف نفت الرسول (ص) الكفر بالشرك الأكبر والرياء

١. إلتفت إلى محدثي - وهو شيخ وقور^(١) - وقال لى :

— إننى عدتك حديثاً عجيباً !

قلت : هات !

قال :

كنت فى نهاية القرن التاسع عشر فى وظيفة إفتاء للأسطول المبانى . وأرمتُ أن أركب البحر من الدار العليا إلى شاطئ الغرب لشاغل ديفية ، على باخرة يونانية صغيرة تميل كلما مال عليها الموج . كنت فى عزلة موحشة ، لأنى غريب لا تميل سحنة إلى سحتى ، ولا ينحنى زى على زى . وصدقة جلس إزائى على المائدة رجل قد تجاوز الأربعين ، ولكن ملامح الأسفار على وجهه ، وقد استبد الشيب بأكثر مساحة رأسه . أما همته ، فلا تزال فى صعود : يمشى فلا ينحنى ، ويتكلم فلا يتنمغ . . .

بادرنى قائلاً بالألمانية :

— هل تحسن الألمانية ؟

— لا .

سكت ريثما فرغت جفنة من الطعام وعاد سائلاً :

— هل تحسن الفرنسية ؟

— لا .

— هل تحسن الإنجليزية ؟

— لا .

ثم قال لى بلسان فصيح طاق كأنه أحد البداة :

— وهل تحسن اللغة العربية ؟

— أما ابنها !

— ما اسمك ، وما اسمك ، ومن أين ، وإلى أين ؟

أجيبته على سؤاله ، وعجبت من أمر هذا الرجل الذى كان يبنى له لما صادفه من زى أن يسألنى بالعربية . وقدم إلى نفسه بأنه مستشرق ألمانى من هامبورج ، قضى فى الشرق زمناً طويلاً يلو به الأخلاق ، ويدرس العادات . وكانت صحبتنا خلال هذه

(١) وهو الأستاذ الطرابلسى الشيخ على شيخ العرب

في مشواه ، لأنه عربي له عليه حق الضيافة . وفي اليوم الثاني عرج به إلى الجامعة ، وقدمه إلى رئيسها ، وهو شيخ مفكر ، لكنه غير محلول اللسان

قال الرئيس لمحدثي بالبرية :

— كيف رأيت بلادنا ؟

— البلاد جميلة !

— جميلة ! الظواهر جميلة في انتظام ، أما البواطن في انقلاب ! ولكن إذا حكم الإنسان العقل أدرك الأمور بحقائقها

فالتفت محدثي إلى الرئيس وقال :

— على ذكر العقل وإدراكه للحقائق ، أود أن أذكر هذه الفقرة من كتاب مخطوط قرأته في مكتبة — أياصوفيا — وهو في التصوف ، واسمه « نور الأبصار » مؤلفه الشيخ بهاء الدين اليانيلي من منطقة الألبان (صدر في سنة ١١٦٠ هـ) . قال عن الشيخ المعارف الأكبر السيد محي الدين بن عربي : « ما عرفت رجلاً عرف الله عن طريق العقل مثل أفلاطون . . . وأفلاطون فيلسوف يوناني فتفتحت له الحكمة ، وانزاحت عن عينيه الحجب . وقد أوصى بأن ينقش على قبره : « الحكمة سلم العالم الأعلى ، من علمها فقد علم القرب إلى بارئه ، من تدبر نظر ، ومن نظر عرف ، ومن عرف عمل ، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله ، ومن انفتح ذهنه وعقله صفت نفسه ، ومن صفت نفسه وصل إلى خالقه بدون واسطة ! »

وهنا طلب الرئيس إلى محدثي اسم الكتاب واسم مصنفه ومكانه . وطلب إلى أستاذ في الجامعة أن يسافر لئله إلى — الدار المالية — لاستنساخ الكتاب . ويضيف محدثي إلى ما قاله : وبعد شهرين علت من قيم المكتبة أن أستاذاً ألمانيا نقل الكتاب ، وأعطى القيم مكافأة حسنة . . . ضليل فنداري

الافصحاح في فقه اللغة

مجمع مرئي : خلاصة المختصين وسائر الملاحم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسفكك باللفظ حين يحضرك للقي . أثره وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، سنة ١٣٢٠ فرشاي طلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

مهدي يوسف مرسى ، عبد الفتاح الصمدي

في الأخلاق بالشرك الأصغر . ومن ذا الذي لا يذكر ذلك الأعرابي الذي قدم على الرسول والذائل حشواً ثيابه ، فقال له : إنه لا يستطيع أن يقعد عن الخمر ، وعن الفسق ، وعن القمار . فما عالج الرسول الحكيم إلا من الناحية المعنوية التي تقوى الشخصية وتقي النفس قال له :

— لا تكذب ، وافعل بعد هذا كل شيء !

لكن الأعرابي بعد يومين ترك كل رذيلة .

وها هنا روعة الفهم وروعة الحكمة !

ولكن كيف يعمل مصلحون يتاجرون بالأخلاق الحسية على حساب الأخلاق المعنوية ؟

التفت المستشرق إلى محدثي وسأله عن المسألة الثانية :

— وما هو الفارق بين الشرقيين والغربيين ؟

فانتذر صاحبي بأنه لا يعرف الغرب معرفة صحيحة ، كما اعتذر الشيخ محمد عبده حين سأله الفيلسوف سبنسر عن أخلاق الإنجليز فأجاب المستشرق :

— إن الشرق كفرده قيمته وطيبه قلبه ، بعكس الغربي الذي فسدت ذانيته ، وتمطلت معاسن نفسه . ولكن الشرق حين يندمج ويتكامل مع غيره لا يلد إلا كتلة فاسدة متفدخة ، يسوقها الطمع ، وتقطنها الأنانية . بعكس الكتلة الغربية التي يسودها النظام ، وتدوب فيها المصالح الفردية . ولهذا يرجع سر نجاح الجمعية الغربية ، وفشل الجمعية الشرقية !

ولقد أصاب المستشرق المهدف إلى حد بعيد ، لأن تربية الشرق تربية ذاتية أنانية تدور حول نفسها ، لا تعمل الخير ولا تطلب الإحسان في العمل إلا إذا عملت لنفسها . بينما تربية الغربي تكاد تصبح تربية جماعية اجتماعية ، كأنما أدركت هذه التربية قول الرسول (ص) : يد الله مع الجماعة .

ولكن ما عسى يقول هذا المستشرق لو عرف أن الشرق الذي كان يعرفه قدماء ، وأن الشرق اليوم قد أصاح طيبة القلب وأمانة النفس كفرد ، وبهذا أصبح لا يصلح للحياة كفرد في نفسه ولا في مجتمعه !

وهنا اقترعاً . . .

لكن القدر هياً لها اجتماعاً ثانياً بعد أربعة أعوام في مدينة المستشرق — هامبورج — لاستقبال المستشرق صاحبنا وأحله